من دلالات الاسم

في الاستعمال العربي القديم

أ/ عبد السلام غجـــاتـــي

أستاذ مكلف بالدروس، قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة منتوري ـ قسنطينة ـ الجزائر

ملخص :

حظي الاسم في التراث اللغوي العربي القديم بعناية كثير من العلماء والدارسين، وذلك لما يحمله من دلالات؛ وكان لأسماء الأعلام والأماكن وقفات مطولة حاول من خلالها العلماء البحث في تلك التسميات التي كانت متداولة في البيئة العربية القديمة.

ويهدف هذا المقال إلى تتبع جهود طائفة من علماء اللغة القدامى في هذا المجال، من خلال نصوص مختارة من مصادرها الأصلية، تبيّن التفاتة هؤلاء الباحثين إلى الخلفيات التي انطلق منها العرب في وضع الأسماء عموما، وأسماء الأعلام على وجه الخصوص.

حظي الاسم في التراث العربي القديم بعناية كثير من العلماء والدارسين، وذلك لما يحمله من دلالات، وما يوحي به من معان وإشارات؛ وكان لأسماء الأعلام والقبائل وقفات مطولة حاول من خلالها العلماء البحث في تلك التسميات التي كانت متداولة قديما.

وتأتي هذه الدراسة ليس للوقوف على جانب من تلك الجهود فحسب، بل لتحاول استكناه أصول تلك الأسماء وتتبع ما تحمله من دلالات وأبعاد لها علاقة بالزمان والمكان.

تعريف الاسم :

في البداية نتوقف عند الدلالة اللغوية للاسم، فهذا الجوهري (ت 393 هـ) يقول في صحاحه "والاسم مشتق من سَمَوْتُ، لأنه تَنْوِيهٌ ورِفْعة"[1]؛ ويؤيده الفيومي (ت 770 هـ) في أن أصل اشتقاقه هو من السمو، فيُفصّل الحديث في ذلك بقوله : " والاسم همزته وَصْلٌ وأصلُه (سُـــ مْـــ وٌ) مِثلُ حِمْل أو قُفْل، وهو من (السُّمُو) وهو العُلُوّ، والدليل عليه أنه يُرَدّ إلى أصله في التصغير وجمع التكسير فيُقال (سُمَيٌّ) و(أَسْمَاء)..."[2]؛ ثم يذكر رأي بعض الكوفيين الذين يرون أن أصله (وَسْمٌ) وأنه من (الوَسْم) وهو العلامة، فيُبْدي مُعارضته لهذا الرأي بقوله : "... وهذا ضعيف لأنه لو كان كذلك لقيل في التصغير(وُسَيْمٌ) وفي الجمع (أَوْسَامٌ)، ولأنك تقول (أَسْمَيْتُهُ) ولو كان من (السِّمَة) لَقُلْتَ (وَسَمْتُهُ)"[3].

وهو ما ذهب إليه الرازي بقوله : " و(الاسم) مشتق من سَمَوْتُ لأنه تَنْويهٌ ورِفعة وتقديرُهُ افْعٌ والذاهب من الواو لأن جمعه (أسماء) وتصغيره (سُمَيٌّ) واختُلِف في تقدير أصله ... ."[4]

وعند تحديد الدلالة الاصطلاحية لهذه الصيغة، نجد بأن (الاسم) هو "ما دل على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة، وهو ينقسم إلى اسم عين، وهو

الدال على معنى يقوم بذاته، كزيد وعمرو، وإلى اسم معنى، وهو ما لا يقوم بذاته، سواء كان معناه وجوديّا كالعلم، أو عدميا كالجهل."[5]

فالاسم هو اللفظ الذي نستطيع بواسطته تمييز المسمى عن غيره، والتسمية في حقيقتها هي تعريف الشيء المُسمّى، ولهذا جاء تحديد المعجم الوسيط لهذا المعنى كالآتي: "(الاسم) ما يُعرف به الشيء ويُستدل به عليه."[6]

بعد هذه اللمحة الخاطفة إلى المعنى اللغوي والاصطلاحي، نعود إلى اهتمام علمائنا القدامى بأسماء الأعلام والقبائل، ونذكر أمثلة من جهودهم في هذا المجال، حيث بحثوا في أصلها الدلالي، وكشفوا عن خلفيات إطلاق كثير من تلك التسميات.

وفي هذا الصدد يستوقفنا أحد علماء القرن الثالث الهجري، ممن تتبع بالشرح والتفسير ألفاظ القرآن الكريم وغريب الحديث النبوي، وأثْرى المكتبة العربية بمؤلفات عديدة، نذكر منها في هذا السياق كتابه : أدب الكاتب. فقد أفرد أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276 هـ) بابا في كتابه هذا بعنوان : (باب أصول أسماء الناس)[7] حاول من خلاله الالتفات إلى هذه الظاهرة، والإشارة إلى الخلفية التي تستحضرها الأسماء عند النطق بها، وما توحي به من دلالات.

وما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أن ابن قتيبة قد تناول في هذا الباب جانبا معينا من ظاهرة التسمية، وكلها لها علاقة مباشرة ببيئة الإنسان العربي، لذلك وردت مباحث هذا الباب كما يلي :

- المُسمّون بأسماء النبات، وشرح ضمن هذا المبحث معاني بعض الأسماء التي لها علاقة بالنبات فقال : "ثُمامة : واحدة الثُّمَام، وهي شجر ضعيف له خُوص أو شبيه بالخوص"[8]، و"... طلحة : واحدة الطَّلْح، وهي شَجَرٌ عِظامٌ من العِضَاه ...، عَلْقَمَة : واحدة العَلْقَم، وهو الحنظل."[9] و"... سَلَمَة : واحدَة السَّلَم، وبها سُمّي الرجل، والسَّلَم من العِضاه... ."[10]؛ ثم أورد نماذج من المسمّين بأسماء الطير، فذكر مثلا منها : " هوْذَة : القطَاة، وبها سمي الرجل ...، الهيثم : فَرْخُ العُقاب، عِكْرِمة : الحَمَامة"[11] .

ثم المسمّون بأسماء السباع : "عَنْبَس : الأسد، وهو فَنْعَل من العُبوس وبه سُمّي الرجل، أَوْس : الذئب : وبه سمّي الرجل ...، حَيْدَرَة : الأسد، ومنه قول علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : أنا الذي سَمَّتْني أمّي حيْدَرَة، ذؤالة : الذئب وبه سُمّي الرجل. أُسَامة : الأسد، وبه سُمّي الرجل... ."[12]

ودائما وسط هذه البيئة التي يقيم بها العربي، ويحتك بنباتها وحيوانها وجمادها، وينقل منها أسماءها لتسمية بنيه، يذكر ابن قتيبة في المبحث الموالي المسمّين بأسماء الهوام، ومنهم : "... جُندب : الجرادة، وبه سُمّي الرجل . الذّرّ : جمع ذَرَّة، وهي أصغر النمل، قال الله تعالى : "فمن يعمل مثقال ذَرّة خيرا يره" (الزلزلة : 07)، أي : وزن ذَرّة، وبها سُمّي الرجل ذَرًّا، وكُنّي أبا ذَرّ ، العَلَس : القُرَاد، ومنه سُمّي "المُسيّب بن عَلَس" الشاعر، المازن : بيض النمل، ومنه بنو مازن... ."[13]

ويختم ابن قتيبة هذا الباب بالمسمّين بالصفات وغيرها، ويركز خصوصا على دلالات أسماء المشاهير من الشعراء وألقابهم، ومما أورد منهم : "عَجْرَد : الخفيف السريع، وقيل هو مأخوذ من المُعَجْرِد، وهو العُرْيَان، ومنه حَمّاد عَجْرَد ... زُهَيْر : من "أزهر" مُصَغّر مُرخّم، مثل سُوَيْد من أسود، والأزهر : الأبيض... الفرزدق : قطَعُ العَجين، واحدُها فَرَزْدَقة، وهو لقب له، لأنه كان جَهْمَ الوجه. الجَرير : حبل يكون في عُنُق الدابّة من أَدَم، وبه سُمّي الرجل جريرًا"[14]؛ وعلى هذه الشاكلة يفسر ألقاب طائفة أخرى من الشعراء أمثال : الأخطل، دعبل، ذوالرمة، ابن حلّزة، الطرمّاح، مهلهل، وكلها دلالات مستمدة من بيئة بدوية يتستأنس فيها العربي بكل مظاهر حياته اليومية، فظهرت آثارها مرتسمة في تلك الطائفة من الأسامي التي كانت صورة صادقة لها، وهو ما توحي به في تلك الدلالات التي أشار إليها.

ويعد أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت 321 هـ) من أوائل اللغويين العرب الذين أفردوا لهذا الموضوع عملا معجميا متخصصا شرح فيه أسماء القبائل والعمائر... وساداتها وشعرائها وفرسانها إلخ...، وذلك في كتابه "الاشتقاق"[15]

حيث قال : "وكان الذي حدانا على إنشاء هذا الكتاب، أن قوما ممّن يَطْعن على اللسان العربي ويَنْسُب أهله إلى التسمية بما لا أصل له في لغتهم، وإلى ادّعاء ما لم يقع عليه اصطلاح من أوّليتهم، وعَدّوا أسماءَ جَهِلُوا اشتقاقها و لم يَنْفُذ علمُهم في الفحص عنها، فعارضوا بالإنكار..."[16]؛ ثم يُعلق على ذلك بأن العرب لم تكن تعرف دلالات الأسماء فحسب، بل كانت تتعمّد إطلاق التسمية لحكمة تتجلّى في هذه الرواية التي ساقها بقوله : "وأخبرنا أبو حاتم سهل بن محمّد السجستاني، قال : قيل للعُتْبي : ما بال العرب سَمّت أبناءَها بالأسماء المستشنعة، وسمّت عبيدها بالأسماء المستحسنة؟ فقال : لأنّها سَمّت أبناءَها لأعدائها، وسَمّت عبيدها لأنفسها".[17]

وانطلاقا من هذه الرواية، راح ابن دريد يتتبع مذاهب العرب في تسمية أبنائها، "فمنها ما سَمّوه تفاؤلا على أعدائهم نحو غالب، وغلاّب، وظالم، وعارم، ومُنازِل... ونحو ذلك. وسَمّوا في مثل هذا الباب : مُسْهِرًا، ومُؤَرِّقًا، ومُصَبِّحًا ومُنبِّهًا، وطارِقًا. ومنها ما تفاءلوا به للأبناء نحو : نائل، ووائل، وناجٍ... وسعد وسعيد... وما أشبه ذلك. ومنها ما سُمّي بالسّباع ترهيبا لأعدائهم نحو : أسد، وليث، وفرّاس، وذئب، وسيّد، وعَمَلّس، وضرغام، وما أشبه ذلك."[18]

فهذه أسماء تُربك الأعداء عند سماعها وتُشعرهم في الغالب بانطباق الاسم على المسمّى، لذلك سار العرب على هذا النهج في التسمية، و لم يخرجوا من دائرة بيئتهم، فمنها أخذوا ما احتاجوا إليه من ألفاظ ليتميز بها أبناؤهم؛ يقول ابن دريد : "ومنها ما سُمّي بما غَلُظَ من الأرض وخَشُنَ لَمْسُه ومَوْطِئُه مثل : حَجَر، وحُجَيْر، وصَخْر، وفهْر، وجَنْدَل وجَرْوَل، وحَزْن وحَزْم."[19]

ويمتد تأثير محيط الطبيعة القاسي إلى خضوع العرب في التسمية كذلك إلى العادات والتقاليد السائدة، فيظهر إيمانهم مثلا بالفأل والطيرة بلجوئهم إلى الفضاء المفتوح أمامهم لأخذ أسماء مواليدهم، يقول ابن دريد في هذا المجال : "ومنها أن الرجل كان يخرج من منـــزله وامرأته تمخض (أي تتمخّض)* فيُسَمّي ابنه بأوّل ما يلقاه من

ذلك نحو : ثعلب وثعلبة وضب وضبة، وخُزَر وضُبَيْعَة، وكلب وكُليب، وحمار وقرد وخنـــزير، وجحش، وكذلك أيضا سمّى بأوّل ما يسنح أو يبرح لها من الطير نحو : غراب وصُرَد، وما أشبه ذلك."[20] فاختيار اسم المولود هنا كان بأول شيء وقعت عليه عينا المُسَمّي ـ مراعاة للعرف السائد آنذاك في مثل هذه المواقف ـ لذلك حفلت قائمة الأسماء المذكورة ـ وهي عيّنة ـ بأسماء كثير من حيوانات العصر الجاهلي.

ويشير ابن دريد بعد ذلك إلى عدم خروج العرب ـ في التسمية ـ من بيئتهم، موردا أمثلة لا تخرج عن هذا السياق بقوله : "ومما اشتق من أسماء الشجر : مَظّة، والمظُّ: رُمّان البَرّ، وعِضاه، وهي شجرة لها شَوْك، وكذلك طَلْحَة، وسَمُرَة. وما أشبه ذلك، وسَلَمَة، وغافة وقَرَظَة، كل هذا شَجَر له شَوْك... وطَرَفَة : واحدة الطَّرْفَاء... وعَرَادَة : اسمٌ، وهو ضَرْبٌ من الشجر... وحَرْمَلَة : نبت معروف، وحنظلة معروف، وعِشْرِقَة : شجر معروف، وهو اسم من أسماء النساء، وغَيْطَلَة : اسم امرأة، وهو الشجر الملتف ... وثُمَامَة : ضرب من النبت، وعُرْوَة : الشجر الذي يبقى في الجـــدب".[21]

ويختم ابن دريد مذاهب العرب في تسمية أبنائها بالنص على اشتقاقهم كذلك من أسماء اليابسة بقوله : "ما يُسمّى وهو مُشتق من أسماء الأرضين : بنو سَلِمَة: بَطْنٌ من الأنصار، والسَّلِمَة : الحَجَر، والجمع سِلاَم. وبنو جَرْوَل، وبنو صَخْر، وبنو حَزْن : بُطونٌ من بني نهشل، يُسَمَّوْن الأحجار. وبنو حَزْن، وبنو حَزْم، وبنو جَنْدَل : بُطُونٌ أيضا. والحَزْن والحَزْم : الغلَظ من الأرض. فهْر : حَجَرٌ يَمْلأ الكفّ، وهو مؤنث، يُصَغّر فُهَيْرَة. فِنْد : وهي القطعة العظيمة من الأرض. جُرَيْج، وهو تصغير جَرْج، وهي الأرض التي تركبها حجارة. جُنَيْد : تصغير جَنَد، وهي الأرض الغليظـــة."[22]

وبهذا العمل، يكون ابن دريد قد ردّ على الطاعنين على العرب، جهلا أو تجاهلا، تسميتَهم كلْبًا وكُلَيْبًا وأكْلُب، حيث ارتأى أن يبين لهؤلاء القوم مذاهب

العرب في تسمياتها، مبيّنا أسبابها وعلاقها، معرجا على الاشتقاق، وذاكر في ذلك جواب العُتبي حين سُئِل : ما بال العرب سمّت أبناءَها بالأسماء المستشنعة وسمّت عبيدَها بالأسماء المستحسنة؟ فقال : لأنها سمّت أبناءها لأعدائها وسمّت عبيدَها لأنفسها. ووجد ابن دريد أن جواب العُتبي فيه إيجاز محتاج إلى شرح يوضّحه الاشتقاق.

وبذلك حفل هذا الكتاب بذخيرة لفظية واسعة، تضمّنت الاشتقاق اللغوي لأسماء القبائل والرجال، وشرح للمادة اللغوية التي اشتقت منها هذه الأسماء، وبيان أنساب قبائل العرب، كما زوّدت الباحث بكمّ من المعلومات المتعلقة بالجوانب الدينية والأدبية، والتي لها علاقة بمواد الكتاب.

ولا يسعنا في هذا السياق إلا أن نورد إشارة أخيرة لها علاقة مباشرة بما أومأنا إليه، وهي عبارة عن فصل ساقه أبو منصور الثعالبي (ت 429 هـ) بعنوان "في تسمية العرب أبناءها بالشنيع من الأسماء"، حيث قال في هذا الصدد : "هي من سنن العرب، إذ تُسَمّي بحَجَر، وكَلْب، ونَمِر وذِئْب، وأَسَد وما أشبهها. وكان بعضهم إذا وُلِد لأحَدِهم وَلَدٌ، سمّاه بما يَرَاه ويَسْمَعه، مما يُتَفَاءَل به . فإذا رأى حَجَرًا أو سَمِعَه، تَأوّل فيه الشدة، والصّلابة، والصبر، والبقاء. وإن رأى كَلْبًا تأوّلَ فيه الحِراسة، والأُلفة، وبُعْدَ الصوت. وإن رأى نَمِرًا، تأوّل فيه المَنْعة والتيه والشكاسة... وقال بعض الشعوبية لابن الكلبي : "لم سمّت العرب أبناءها بكَلْب، وأوس، وأسد، وما شاكلها، وسَمّت عبيدها بيُسْر، وسَعْد، ويُمْن ؟ فقال وأحسن : لأنها سمّت أبناءها لأعدائها، وسمّت عبيدها لأنفسها".[23]

والثعالبي بهذا الفصل يلخص جانبا مهما من الخلفيات التي انطلق منها العرب في وضع أسماء الأعلام على وجه الخصوص، وتبقى عوامل أخرى عديدة في حاجة إلى حصر ومزيد من التحليل قد يكون مجالها عرض لاحق بحول الله.

الهوامش :

(1) الصحاح للجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 3، 1404 هـ- 1984 م، (مادة سما) : 2383/06.

(2) المصباح المنير للفيومي، تحقيق عبد العظيم الشناوي، دار المعارف بمصر، 1977 : 1/ 290 .

(3) المرجع نفسه : 1/ 290 .

(4) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت، 1986 (سما) : ص 133.

(5) كتاب التعريفات للجرجاني، حققه وقدم له ووضع فهارسه إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث، (د. ت) : ص 40 .

(6) المعجم الوسيط، دار الفكر، (د. ت) : 2 / 833 .

(7) أدب الكاتب لابن قتيبة، تحقيق محمد الدالي، ط 2، 1405 هـ – 1985 م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت : ص 67 .

(8) المرجع نفسه : الصفحة نفسها.

(9) م ن : ص 68.

(10) م ن : ص 69.

(11) م ن : ص 70.

(12) م ن : ص 70، 71.

(13) م ن : ص 72.

(14) م ن : ص 75 – 78.

(15) الاشتقاق، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، العراق، دار المسيرة، بيروت، ط 2، 1399 هـ – 1979 م.

(16) المرجع نفسه : ص 04.

(17) م ن : ص ن.

(18) م ن : ص 05.

(19) م ن : ص ن.

(*) أي جاءها المخاض.

(20) م ن : ص 06 .

(21) م ن : ص 563 – 565.

(22) م ن : ص 566.

(23) فقه اللغة وأسرار العربية، ضبط وتقديم ووضع الفهارس : ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 1422 هـ – 2002 م : ص 408.

المصادر والمراجع :

(1) أدب الكاتب لابن قتيبة، تحقيق محمد الدالي، ط 2، 1405 هـ – 1985 م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

(2) الاشتقاق لابن دريد، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، العراق، دار المسيرة، بيروت، ط 2، 1399 هـ – 1979 م.

(3) التعريفات للجرجاني، حققه وقدم له ووضع فهارسه إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث، (د. ت).

(4) الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 3، 1404 هـ – 1984 م.

(5) فقه اللغة وأسرار العربية، لأبي منصور الثعالبي، ضبط وتقديم ووضع الفهارس : ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 1422 هـ – 2002 م.

(6) مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت، 1986.

(7) المصباح المنير للفيومي، تحقيق عبد العظيم الشناوي، دار المعارف بمصر، 1977.

(8) المعجم الوسيط، دار الفكر، (د. ت).